المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 35 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

اللغة بين السفسطة والفلسفة

عزمي محمد "عيال سلمان"

أستاذ مشارك بقسم اللغة العربية – كلية العلوم والآداب –
جامعة نجران – المملكة العربيّة السعوديّة

تاريخ الإرسال: 2019/11/03 تاريخ القبول:2021/06/04

ملخص:

منذ العصور القديمة كان هنالك ضربان من تجلّي اللغة، أحدهما يمكن أن يُطلَق عليه اسم (فنون الكلام)، والآخر هو (خطاب الفكر). فمع الأوَّل لسنا أمام ما يُسمَّى بـ(أدب)، فهذه الكلمة - وفقًا لـ(ميشيل فوكو) - هي حديثة عَهْد في الثقافة الغربية، كما هو حديث في هذه الثقافة اللجوء إلى عَزْل نوع خاص من اللغة، خاصيَّته أنه أدبيّ. ولعل سبب ذلك يعود إلى النظرة السلبية التي تَبنَّاها الفلاسفة تجاه الممارسات الكلامية التي انتقلت باللغة من طور الأداة والوسيلة لتجعل منها غاية بحد ذاتها. فهذا الموقف النقدي للفلاسفة شكَّل عائقًا، في ذلك الزمان، أمام ظهور علم أصبح يُعرَف اليوم بـ(لسانيات الكلام)؛ يَتمُّ الغوص من خلاله في عُمْق الكلام بوصفه موضوعًا، وتُتْرك للمعرفة مجالًا لتحليله. وقد نتج عن هذه النظرة أيضًا تأخُّر ظهور كثير من الاتجاهات اللغوية إلى وقتنا المعاصر، على نحو ما نجده في (التداولية)، و(نظرية أفعال الكلام) و(الحجاج اللغوي) و(تحليل الخطاب) ... إلخ. فظهور أغلب هذه الاتجاهات على أيدي فلاسفة معاصرين هو بمثابة التكفير عن ذنبٍ قديم اقترفه آباء الفلسفة الغربية، عندما جعلوا من التفنُّن في أساليب القول وتعليم الكلام سفسطة (ثرثرة) لا طائل من ورائها. وقد سَعتْ الدراسة إلى إسناد دور بارز للسفسطة في إحالة اللغة من كيان مادي إلى سُلطة التكلُّم المُجرَّدة؛ ليصبح الكلام بذلك تواصلًا ولعبًا، لا قانون له سوى التأكيد على حضوره، بمقابل تمثيلات خطاب الفكر وسعيه الدائم لإرادة الحقيقة وبنائها. فمع السفسطة لم يَتبقَّ أمام اللغة سوى الدوران حول نفسها، كما لو أن خطابها لم يعُد يمكنه الاستمرار إلا بالإفصاح عن فنونها وتَشكيلاتها.

الكلمات المفتاحية: الفلسفة، السفسطة، اللغة، الحجاج، التواصل، الإقناع، الشعر

Abstract

Since the ancient times, there were two faces of language; one might be called the “the art of speech” and the other is “thought discourse”. The first face doesn’t mean “literature” as it is defined by Foucault as a new word in western culture due to the behaviors of philosophers toward the act of speech as they adopted the language as a goal rather than a tool. Thus, this critical position of philosophers was an obstacle, at that time, to the emergence of a science that is now known as (linguistics); in which it delves into the depth of speech as a subject, and leaves the knowledge to be analyzed. This view results a delay of the emergence of many linguistic trends such as Pragmatics, the theory of acts of speech and speech analysis etc. Accordingly, the emergence of most of these trends by the modern philosophers is a reaction of what the fathers of Western philosophy committed, when they considered the art of teaching and studying languages useless sophistication. The study aims to assign the prominent role of sophistication in referring the language from a physical entity to abstract speech as become a communication tool without roles except its

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 35 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

emphasized presence compared to its representations of thought and its constant pursuit of the will and construct the truth . Thus, with sophistication, the language has no more than to turn around, as if its discourse can no longer survive except by revealing its arts and formations.

Keywords: philosophe, sophistication, language, argumentation, communication, persuasion, poetry

مُقدّمة:

تَشكَّلتْ تصوُّرات الفلاسفة حول هُويَّتهم المتفرّدة في وقت مُبكِّر من عمر الفلسفة في اليونان القديمة، وباستعارتنا مرآة (جاك لاكان) يمكننا القول إن الإنسان المُتفرِّد حين يبدأ بتطوير قدرة التعرُّف على صورته، فإن تلك المعرفة عادة ما تُبنَى على الفهم وسوء الفهم في الوقت نفسه؛ إذ يُدرِك أن صورته مُلتبِسة وليست مطابقة له تمامًا؛ لِمَا تحتويه من أجزاء غير مألوفة، فهي صورة أخرى تنتحل ذاتَه. ويظهر في كلمات الشاعر الفرنسي (رامبو) ما يُعبِّر عن ذلك حين كتب: (لأني أنا الآخر). فسماح المرء لنفسه أن تقتنع بأن تجسُّدها الآخر كان مجرد وَهْم، قد يؤذن بموتها، وعلى هذا النحو تكمن نهاية المرء في رؤية النسخة الأخرى لنفسه ورفضها. ومرحلةً تالية لحالة التفرُّد، يعيش الفيلسوف، بوصفه ذاتًا نفسية، حالة من (الاغتراب)، بدأت مع سقراط وأخذت تتأكَّد بشكل قوي مع أفلاطون وأرسطو. فقَبْل هؤلاء الفلاسفة، كان ازدياد شعور المرء بالشك في نفسه - كما يرى عالم النفس (يونغ) - يزيد شعوره بالقرب من جميع الأشياء؛ لهذا كان فلاسفة اليونان السابقون أكثر قربًا من الطبيعة والمادة. وأما مع المرحلة التي تبدأ بسقراط، فإن شعور الاغتراب الذي فصل الفيلسوف عن العالم وجعله يتحوَّل إلى عالمه الداخلي، كان سببًا في الكشف عن ذاته المُجتَمِعة والمتناسقة، فهذا الحيّز الواسع والمجهول من خرائط الذات بدا مُدرَكًا لهذه الفئة من الفلاسفة التي تُعَنْوَن فلسفتهم بمقولة: (اعرف نفسك). فتحت هذه المعرفة أُقصي (الآخر)، أو بالأحرى، صُنِع الآخر (السفسطائي)، وكان هذا الآخر (هو الجحيم). فالسفسطائي هو النسخة الأخرى أو الذات المُزدوَجة التي لم يملَّ الفيلسوف من رفضها وإقصائها على مرّ السنين.

ولا شك أن السفسطة قديمة قِدَم الفلسفة، وبهذا الاقتران تكون نقيضها الأوَّل وضِدُّها الدائم، هي نقيضها الأول؛ لأنها تتجاوز بفنون القول وأساليب الكلام الحرص على تتبُّع الحقيقة، باحثةً عن الإقناع وسط الآراء المتضاربة، فالتقنية المعتمدة على معرفة الأسباب التي تُولِّد تأثيرات الإقناع، تمنح - بحسب بول ريكور - سلطة قوية لذلك الذي يتحكَّم فيها تحكُّمًا تامًا؛ سلطة تسخير الناس بتسخير الكلمات. وهي ضِدُّها الدائم؛ لأنه ما من عصر إلا ووُجِد فيه سفسطائي كبير يقف نِدًّا لفيلسوف عظيم، فهذا (شوبنهاور) جعل من (هيغل) ضدًّا له، وأما (نيتشه)، فقد جعل من كل الإرث الفلسفي، منذ عصر اليونان وحتى كانط، ضدًّا له ولسفسطته. وفي عصرنا الحاضر

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 35 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

اختلطت الأمور، ولم نعُد نميّز الفيلسوف من السفسطائي، ولربما يعود ذلك إلى كون بدايات القرن العشرين، تُمثِّل المنعطف الحاد لفلسفة اللغة، فمعظم المفكرين والفلاسفة يَتحدَّثون عن اللغة ودورها الكبير في إعادة النظر بما سُمِّي بـ(مشكلات فلسفية)، فتحليل الكلام لم يعُد سُبَّة يُطلقها الفلاسفة (معلِّمو التفكير) في وجه السفسطائيين، فما كان يُعدُّ عيبًا زمن اليونان، أضحى اليوم سمة عامة للفكر، في عصر صار يُسمَّى بـ(عصر التحليل).

ولهذا فإن إمكانية الفصل بين السفسطة والفلسفة يوافق بالكامل تاريخ الفكر الغربي. وقبل سعي الفلاسفة لأن يجعلوا من السفسطة ظاهرة غير مجدية، فإنها، على الأقل، كانت خطيرة؛ لهذا نجد أفلاطون وأرسطو يدينانها بشدَّة، فعلاقة السفسطة بالفلسفة، من وجهة نظرهما، مثل علاقة الخطابة بالعدالة التي هي فضيلة سياسية بامتياز، أو مثل الثرثرة في علاقتها بالتشريع؛ أي أن السفسطة، بالنسبة لهم، هي فنون قولية تروّج للخديعة والإيهام. وهذه الإدانة للسفسطة باعتبارها تنتسب إلى عالم الكذب والزيف بحاجة إلى إعادة نظر؛ ذلك أن ما أُشيع وأَخذت الأجيال المتعاقبة تُردِّده دون تمحيص، هو وجهة نظر أعداء السفسطة وخصومها اللدودين. فوَضْعُ الفلاسفة أيديهم على خداع السفسطائيين يجلب لهم عدوى الخديعة.

والانهماك في فنون القول والاشتغال بتحليل الكلام، هما من أكثر المداخل التي وجد فيها فلاسفة اليونان مجالًا للطعن في السفسطة بوصفها ظاهرة لا تخرج عن دائرة اللغو والثرثرة. ولم تُعطِ الفلسفة اعتبارًا لتلك الاهتمامات إلا في وقت متأخر من نُضْجها، وقد كان ذلك عندما أخذ الفيلسوف يُدرِك بأن وجود عقله المُفكِّر مرتبط بالإمكانات التي يتيحها عقل اللغة ويسمح بها؛ فعقل اللغة متفوّق على عقل الذات الناطقة بها، كتفوُّق الأزلي على الطارئ، وكتفوُّق الجمعي على المتفرّد. وأيُّ فكر، مهما أُوتي من قوة وحيوية، فإنه لن ينجو من شَرَك اللغة وحِبالها. فاللغة اليونانية، كغيرها من اللغات، هي حقيقة تاريخية كثيفة وغنيَّة بما تحمله من تقاليد وعادات فكرٍ صامتة. ووفقًا لميشيل فوكو: عندما يُعبِّر قوم عن أفكارهم بتراكيب كلامية تَخْفَى عنهم أبعادُها التاريخية، يظنون أن أقوالهم تُطيعهم، فيما هم الذين يخضعون لمقتضياتها سلفًا قبل أن يتفوَّهوا بأي كلمة. فنحن خاضعون للغة ومكبَّلون بها، والقواعد النحوية في لغة ما، هي ما يُشكِّل الإطار القبْلي لما يمكن التعبير عنه بواسطة تلك اللغة. ولن يُجدِي نفعًا السعي لإيجاد فكر كامل غير متأثر بشتى ضروب القول وأساليب الكلام، فالفكر عاجز عن الذود عن نفسه أمام خصوصيات اللغة القائمة، التي لا تنفك تحجب شيئًا من جوانبه لعدم شفافيتها. وربما يُحسَب للسفسطة القدرة على قلقلة سكون الكلمات التي نلفظها، وإظهار بصمات فنون القول في أفكارنا، وإعادة إحياء إسماع ذاك الضجيج الصامت الذي يحمله كل خطاب في طيَّاته. وإذا كان مقصد الفلسفة اليونانية، هو البحث عن الحقيقة وتثبيت حدودها فوق الكلمات. فإن السفسطة جعلت نُصْب عينيها التفنُّن في القول وحَلْحَلة أساليب الكلام الجامدة تجاه كل ما يمكن أن يُقال عبر الكلمات ورغمًا عنها، فالمعرفة ليست متعالية على اللغة، بل هي في مكان ما بين الجمل التي نتفوَّه بها[1].

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 35 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

واللغة هي بيت الوجود الذي يحتوي الفلاسفة والسفسطائيين، وما أثار حفيظة الفئة الأولى على الثانية، هو اختلاف مداخل الولوج، فكل باب تفتحه اللغة أمام الناطقين بها، يُشكِّل تقنية استعمال. وفي الفكر اليوناني نجد أن تقنية تمثيل اللغة وبناء المفاهيم لدى الفلاسفة تواجه لدى السفسطائيين تقنية التواصل ولعب الكلام. فتقوم التقنية الأولى، باستنطاق اللغة للكشف (توضيح) عمَّا يُقال خلفها ومن دونها؛ من أجل تكوين فعل معرفةٍ لا يُعكِّره أي كلام. وتقوم الثانية بالسيطرة على فنون القول (التشكيل) وكل كلام مُحتمَل، وإخضاعه للأساليب التي تنص على ما يمكن قوله. فكان من الضروري، إما جعل اللغة شفافة عن أشكال المعرفة، وإما إغراقها في تشكيلات كلامية. ولهذا فأن التمثيل والتواصل هما التقنيتان الأوليان للفكر اليوناني، فالتمثيل لا يقودنا إلى استعمال سابق، بل إلى الوجود الأول المجرَّد لما يمكن اعتباره لغة، فهو يُظهِر الأشكال الخالصة للغة، حتى قبل أن تكون اللغة قد اكتسبت معنى. وقبل تشكيل ما يُظن أنه هو اللغة، كان لا بد من البدء بممارسة حدٍّ أدنى من التمثيل، وبإظهار هذه التمثيلات على الأقل بوصفها تشكيلات ذات دلالة. فالتمييز بين التمثيل والتواصل لا يزال اليوم يُلحّ علينا ويُسيطر؛ لكونه لا يتصف بما يكفي من الوضوح. وهما من المعاصرة بحيث لا نُمَكَّن من الاختيار بين الفلسفة التي كانت تؤمن بـ(التمثيل) وبين السفسطة التي كانت تؤمن بـ(التواصل)، وفي الحقيقة يُشكِّل هذان الفرعان تقنيتين متضايفتين؛ ذلك أن فلسفة اللغة التي ظهرت مع بدايات القرن العشرين كوَّنت لهما الأرضية المشتركة التي انطلقت منها إمكانية وجودهما. وهذا الاشتراك يُفسِّر المنحى المزدوج لهذه الفلسفة صَوْب مفاهيم الفكر من جهة، وصَوْب ألاعيب الكلام من جهة أخرى، وهذا ما يُفسِّر أيضًا النزوع إلى شدِّ الواحد منهما للآخر وشبك هذين الاتجاهين معًا في فلسفة واحدة: النزوع، مثلًا، إلى الكشف عن الأشكال المجردة التي تفرض نفسها على فكرنا، أو النزوع إلى الكشف عن الألعاب المخفية التي تفرض نفسها على لاوعينا [2].

ضِدّ السَّفْسطة

قبل عصر أفلاطون كان للمصطلح اليوناني (سفسطائي) دلالته الإيجابية المتصلة بكلمَتَيْ: (حكيم، وحكمة)، وكانتا تُطلقان على الحِرَفي الماهر أو الفنان من طائفة الشعراء أو الكهنة أو الموسيقيين. وفي أيام هوميروس كانت كلمة (سفسطائي) تعني: أي نوع من أنواع المهارات. وقد دُعي رجال اليونان: (الحكماء السبعة) الأُسطوريين بالسفسطائيين، وكذلك سُمّي الفلاسفة الذين سبقوا عهد سقراط بالسفسطائيين أيضًا. فبعضٌ من السفسطائيين هم أصحاب فكر إلا أن نصوص فكرهم ضاعت منذ أمد بعيد، ولم يتبقّ منها سوى كاريكاتورات لمؤلفيها، وبعضٌ من اقتباسات أوردها نُقَّادهم. فكُتُبهم اختفت كما معظم تفاصيل حياتهم، لكن البقايا المتناثرة من أعمالهم وتصويرات شخصياتهم في أعمال الآخرين، جميعها تكشف عن رغبة عارمة في معرفة المزيد حول كوكبة من الأفكار والاكتشافات التي ليس أقلها رفض اتباع الظاهر من

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 35 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

منطق الرجل (أي سقراط) الذي كنَّى نفسه بـ(قابلة توليد الأفكار)، ولا سيما السير في درب يفضي إلى جنة مخاتلة[3].

ففي مجتمع اليونان كان الفلاسفة المهتمون بالمبادئ العامة ينتمون إلى طبقة اجتماعية أعلى من الطبقة التي ينتمي إليها الفنان والحِرَفي، فهؤلاء ينتمون إلى طبقة أدنى، ولا يفهمون الأفكار العامة. وكانت العادات الاجتماعية لا تُشجِّع الاتصال بين نمطي المعرفة، وإذا حاول إنسان ذو مكانة اجتماعية عالية أن يُطبِّق الفلسفة على إحدى القضايا التقنية، فإنه يُعرِّض نفسه لنقد مرير. أما الاختبار العملي للمبادئ العامة، فقد كان يتطلَّب عملًا يدويًا، وكان العمل اليدوي في نظر اليونانيين القدامى شيئًا يلائم العبيد، ولا يليق بالرجال الأحرار، فمبلغ العبد من العقل، هو أن يفهم الصواب دون أن يكون حائزًا عليه. ولم يقتصر الأمر على الأعمال اليدوية فحسب، بل إنه طال أيضًا الشِّعر وفنون الكلام. ومن العجيب أن نرى أن الفنانين الذين صنعوا مجد اليونان الخالد قد باءوا باحتقار معاصريهم؛ لأنهم لم ينقطعوا إلى الدراسات الراقية (الفلسفة والسياسة). فمن وجهة نظر (بلوتارك): إن الإعجاب بالشيء لا يقود دائمًا إلى تقليده، بل على العكس، فإننا بينما نكون مفتونين بالعمل، فإننا غالبًا ما نزدري صاحبه. فما من شاب رفيع المولد يتمنَّى أن يكون (أناكريون) أو (فيليتاس) رغم إعجابه بشعرهما. فبالرغم من أن العمل قد يكون جيدًا فإن احترام صاحبه لن يكون نتيجة ضرورية لذلك[4].

وقد كان لجهود كل من سقراط وأفلاطون وأرسطو الأثر الكبير في عدم تبوّؤ السفسطائيين مكانة مرموقة في تاريخ الفكر. فالسفسطائيون تجاهلوا القيود الأفلاطونية لمصلحة الميتافيزيقيا، كما تجاهلوا القيود الأرسطوية مفضِّلين التجريبية، وأيضًا تبنّوا منهجًا يقترح إدخال الاستقصاء التجريبي إلى التساؤلات الميتافيزيقية، كأن من شأن ذلك، كما رأى المؤرخ (جي بي كيرفورد): "إبقاؤهم معلقين ما بين بين، وذلك في منزلة تتوسَّط فلسفة ما قبل سقراط من جهة، وفلسفة أرسطو من جهة أخرى؛ إذ يبدون في حيرة أبدية كأرواح تائهة"[5].

وسقراط وأتباعه لم يشملوا في تقريعهم جميع السفسطائيين، بل اقتصر تقريعهم على معاصريهم من السفسطائيين الذين لم يقتصر موقفهم منهم على معارضتهم اجتماعيًا وفلسفيًا، بل ذهبوا أيضًا إلى اتهامهم بالتفنن في استعمال الكلام لتحريف الحقيقة وتضليل الناس. وقد جاء نقد كُلٍّ من سقراط وأفلاطون وأرسطو موزَّعًا على النواحي التالية:

أولًا: نقد سقراط: وتمثَّلَ في ادِّعاء السفسطائيين تقديم أشياء لا يمكن تعليمها، وبذلك كانوا ضحية زَعْم خاطئ تولَّى كِبْره سقراط الذي "ازدرى السفسطائيين؛ لأنهم أعلنوا أنفسهم مُقدِّمين للمعرفة والفضيلة، وهما خصلتان لا يمكن تدريسهما كما رأى سقراط. لربما باستطاعة بضعة من الرجال النبلاء منهم أساسًا أن يتعلَّموا الفضيلة والحكمة، إنما بأنفسهم، وليس بواسطة معلِّم. ومن وجهة نظر سقراط: إن غالبية البشر ميؤوس من تعلُّمهم أيًا من هاتين الخصلتين"[6]. وهذه دعوة من سقراط إلى العزلة والتأمل الذاتي في تحصيل الحكمة والفضيلة. لكن عن أي حكمة أو أي فضيلة يتحدث سقراط؟! فالحكمة والفضيلة التي يُقدِّمها السفسطائيون قابلة للتعلُّم والتدريس،

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 35 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

وهي كفاءة حيوية من نوع ما، تقوم على الاجتهاد المتعلِّق مباشرة بالتعلُّم والرغبة في السعي إلى المعرفة، وليس بالمعرفة بحد ذاتها[7].

ثانيًا: نقد أفلاطون: وتمثَّلَ في تقاضي السفسطائيين أجرًا مقابل التعليم، وبهذا سعى أفلاطون لأن يجرِّدهم من كل سمة فكرية، محاولًا حصرهم بمهنة المعلِّم الجوَّال، ولذلك أدرك أفلاطون أن بإمكانه فهم السفسطائي كنقيض للفيلسوف، هذا ما ذهب إليه (هايدغر)، الذي أردف بقوله: "إلا إذا كان على معرفة مسبقة بالفيلسوف، وكيف تبدو المسألة بالنسبة إليه، فبالنسبة إلى أفلاطون وأتباعه، كان تحديد الخلل في منظومة خصومه المفترضين أسهل عليهم من توضيحها"[8]. ومن هنا كان الانقسام بين السفسطائيين وبين أتباع سقراط طَبَقيًا إلى حدٍّ كبير. فقد كان أفلاطون أرستقراطيًا يحتقر أولئك المعلمين الجوَّالين الذين عرضوا أنفسهم للتأجير في الأسواق بين محدثي النعمة من أفراد الطبقة الوسطى، الذين كان هدفهم احتلال مكانة طبقة النبلاء القديمة؛ لذا احتاجوا إلى تعلُّم الخطابة المطلوبة لمن هم في المجلس. وقد عرض السفسطائيون تعليمَهم مهارات الخطابة والتواصل مقابل المال. وكما يقول (آي إف ستون): إن السفسطائيين يُعاملون بازدراء واستعلاء في كتابات أفلاطون؛ ذلك أنهم كانوا يتقاضون أجرًا. وقد دأبت أجيال متلاحقة من معلمي الأدب الكلاسيكي على ترديد هذا القول دون تمحيص، مع أن بعض السفسطائيين كانوا يُعلِّمون من غير أجر. لكن قبول السفسطائيين إلى حد كبير تعليم أي شخص مقابل المال دفع بـ(زينوفون) إلى القول: إنهم جرَّدوا أنفسهم من حريتها الفكرية حين رهنوها لأموال مستأجريهم[9].

وأساتذة الفلسفة في جامعات العالم، بناء على هذا المعيار، جد محظوظين؛ لأنه لم يَطُل الأجل بأفلاطون ليرى ما آلت إليه الفلسفة، فمنذ نهاية القرن الثامن عشر صار الفلاسفة أساتذة محترفين، وغدت الفلسفة تخصُّصًا جامعيًا له معاييره وقواعد عمله وامتحاناته ومقرراته وشهاداته ... إلخ، ولأنها أصبحت أكاديمية فقد غدت ثقيلة. وقد غيَّرَ خطابَها التحوُّلُ في مجال النشر العلمي ومجال الحِرفيات والسلطات والعمالة؛ كانت توجد مجموعات فلاسفة منعزلي الطباع وباحثين عن الحكمة في العراء، ولمَّا انحصرت الفلسفة في المجال الجامعي بدأت مفرداتها تتعقَّد وصورتها تتغيَّر[10].

ثالثًا: نقد أرسطو: وتمثَّل في كون براعة السفسطائيين تكمن في الكلام وليس في التفكير، فقد صار مصطلح (سفسطائي) في العصور التي تلتْ أفلاطون، يُشير إلى الاستدلال المقبول ظاهريًا، لكنه في حقيقة الأمر مُضلِّل ومخاتل، كما أصبح النقاش السفسطائي يُشير إلى جملة من الحجج الزائفة والمقارنات المُضلِّلة والاقتباسات المُحرَّفة والاستعارات الممزوجة على نحو عبثي[11]. وبذلك أصبحت حكمة السفسطائي تُعرَف بالقدرة على اقتراح مقدمة منطقية زائفة بطريقة تبدو فيها صحيحة، إما لأنها تُشوِّه قواعد المنطق وتظهر بمظهر الحقيقة، وإما لأنها تتوصَّل إلى استنتاجات غير مقبولة. وقد أُخِذ المصطلح ومعناه الازدرائي عن أرسطو الذي نسب السفسطائيين إلى فصيلة النمامين واللصوص. ووفق تعاليم أرسطو، فإن السفسطائيين

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 35 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

كانوا على قدر من الخبث نظرًا لاشتغالهم بحجج تبدو منطقية في ظاهرها، مستخدمين أضاليل مُحكَمَة للوصول إلى استنتاجات غير صائبة، وفي النتيجة دفع الآخرين إلى الوقوع في الخطأ. فربما، على سبيل المثال، يُحاول سفسطائي إقناع المستمع بالتخلِّي عن فرضية ما (حتى إن كانت خارج موضوع الأطروحة)؛ لأنه يعرف مسبقًا كيف يدحضها[12]. وها هو (زينوفون) يقول: "إنني لأُدهش من أن أولئك الذين يُكنُّون أنفسهم بالسفسطائيين يكررون القول: إنهم يرشدون الشباب إلى الفضيلة، فيما يفعلون في الحقيقة خلاف ذلك، إنهم يجعلون الشباب يبرعون في الكلام وليس في التفكير"[13]. وإنَّ القارئ ليُدهَش من دهشة زينوفون نفسها التي تُظهِر تعارضًا بين تحصيل الفضيلة وبين البراعة في الكلام؛ إذ ليس من اللازم على كل من يبرع في التفكير أن يكون صاحب فضيلة.

وفي الحقيقة هنالك تحامل من الفلاسفة في شنّ حملاتهم العنيفة على السفسطائيين وطريقتهم في الحجاج والحوار، تلك الطريقة التي لا تبتعد كثيرًا عن طريقة الفلاسفة السابقين لأفلاطون وأرسطو. فقد كان سقراط يجد في المحاكمات المنطقية أداة صالحة في كل مقام، ويمكن تطبيقها على أي موضوع، حتى في تلك المواضيع التي لا دراية له بها. فسقراط لا يُضيِّع أي فرصة في تجريب محاكماته المنطقية ضد خصومه ومحاوريه. وإن كان من اختلاف بينه وبين السفسطائيين، فلا يعدو أن يكون في مقدار مسافة الأمان المُتَّخذة تجاه المسائل العميقة. وهذه طريقة من التفكير وجدت لدى الفلاسفة اللاحقين من يسير عليها ويتبنَّاها في صُنع حكمته. فمونتين يقول: "في معرض اختياري للمحاكمة المنطقية هاهنا، لا أُفوِّت أي فرصة في تجريبها، فإذا كان الأمر موضوعًا لست على دراية به، تجدني أُجرِّب محاكمتي، إنما من مسافة أمان، حتى أستطلع عمق المسألة، وفي حال تبيَّن أنها قد تغمرني، ألزم برَّ الأمان"[14]. وقد لا يبدو غريبًا أن يكون السفسطائيون أكثر شجاعة وأقلَّ مبالاة بالخوض في غمار تلك المسائل العميقة. بل إن براعتهم في الكلام وحسن تخلُّصهم قد يدفعهم إلى خوض الغمار، وهنا قد نجد سببًا لمن يرى في تلك البراعة معادلًا لنقيض الفضيلة.

وفي القرون التي تلت الحقبة اليونانية كانت هنالك استثناءات لازدراء السفسطائيين المتفق عليه من قبل الفلاسفة، ولم تكن جميع تلك الاستثناءات قليلة الشأن. فـ(هيغل)، مثلًا، سمَّى السفسطائيين الأوائل (أسياد اليونان)، الذين لم يكتفوا بتأمُّلهم في معنى الوجود (كفلاسفة المدرسة الإيلية) أو المجادلة في حقائق الطبيعة (كفلاسفة الأيونية)، إنما اختاروا أن يكونوا مربين محترفين. أما (نيتشه) فوصفهم كرجال تجرؤوا على طمس الحدود بين الخير والشر. فيما أشاد (دولوز) بأفكارهم لأهمية ما تبعثه في أنفسنا، وكتب قائلًا: "ليس ثمة من تعريف للمعنى سوى واحد مماثل لابتكار فرضية ما. لم يكن الابتكار بطبيعة الحال ضالة السفسطائيين؛ إذ كانوا بدلًا من ذلك يبحثون عن كفاءة من نوع ما"[15].

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 35 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

ضِدّ الفلسفة

إن كل مجال مُحدَّد من الفن والفلسفة والعلم يقيم، على طريقته، علاقة بسلبي معين، ولا يقتضي ذلك أن الفن يجب أن يُعلِّمنا أن نشعر ونحس (نحن الذين لسنا فنانين)، وأنه ينبغي للفلسفة أن تُعلِّمنا أن نتصوَّر، والعلم يجب أن يُعلِّمنا أن نعرف. فمثل هذه الترتيبات ليست ممكنة، إلا إذا كان كل نوع (فني) و(علمي) يقيم لحسابه علاقة أساسية مع (اللا) الذي يعنيه. وهذا يدعونا إلى تمييز التقاطعات التي تفصل بين السفسطة والفلسفة، فالسفسطة هي اللافلسفة التي تحتاج الفلسفة إلى فهمها؛ أي إن السفسطة هي فهم (لا فلسفي) تسعى إليه الفلسفة، كما يحتاج الفن إلى لا فن والعلم إلى لا علم. والفلسفة لا تحتاج إلى ما ليس منها مباشرة كبداية ولا كنهاية؛ إذ تصبح مدعوَّة للزوال ما إن تتحقق، ولكن تحتاج إليه في كل لحظة من صيرورتها وتطورها، فالسفسطة تقع في وسط الفلسفة عبر تاريخ الفكر الطويل، أو يمكن القول بأن الفلسفة هي التي تقع في وسط السفسطة، إذا انطلقنا من فرضية تذهب إلى أن الفلسفة هي السلبي الذي تقيم معه السفسطة علاقة ممتدة، ويمكن تدعيم هذا الافتراض بما يلي:

أولًا: إن أثينا على خلاف غيرها من مدن العالم القديم، تلك المدن التي طالما أَبْعَدت المقيمين الأجانب عن أرجائها بذريعة حفظ النظام الأخلاقي وصون أسرار الدولة. ولم تُطبِّق أثينا سياسة الخوف من الأجانب التي كانت لـ(أسبرطة) مع أن الأثنيين اعتادوا نفي أولئك الذين خالفوا أسلوب حياتهم، بل الحكم عليهم بالموت مثل ما فعلوا بسقراط[16]. وبالنظر إلى واقع الفلاسفة وواقع السفسطائيين داخل مجتمع المدينة، نجد أن الفلاسفة المتقدمين على أفلاطون يُمثِّلون فئة طارئة على المجتمع، بينما يُعدُّ السفسطائيون مزيجًا متأصلًا من أبناء المجتمع، مما سمح لهم بالخوض في أمور لا يخوض فيها سوى من يمتلك حق المواطنة الكاملة، كأمور السياسة والقضاء. وفي هذا الصدد يذهب نيتشه إلى أن الفلاسفة السابقين على أفلاطون في مدن اليونان، هم مهاجرون ومغتربون بمعنى من المعاني. وقد وُجِدت شروط فعلية للفلسفة داخل مجتمع اليونان أسهم في بثِّها معلمو الفكر والرأي (السفسطائيون)، وقد جعلت هذه الشروط من نَتَاج الفلاسفة الأجانب فلسفة إغريقية. ما هي هذه الأشياء التي وجدها هؤلاء المهاجرون في الوسط الإغريقي؟ هنالك بداية: وجود طبيعة داخلية للاجتماع تتعارض مع السيادة الإمبراطورية، هذه الطبيعة لا تتضمن أي مصالح مسبقة، وإنما تتنافس على مصالح مفترضة. وتاليًا: هنالك نوع من المتعة في الانضمام إلى الآخرين يُؤسِّس لروح عالية من الصداقة والمنافسة، شملت حتى تلك الجمعيات السرية (الفيثاغوريين) التي وجدت انفتاحها في اليونان. وأخيرًا: هنالك تذوّق للحوار وتبادل للآراء يتعذَّر إدراكه في ظل إمبراطورية. هكذا نقع دائمًا على هذه الخصائص الإغريقية الثلاث التي أسَّس لها السفسطائيون وهي: الطابع الاجتماعي والصداقة والرأي[17].

ثانيًا: لا نستطيع أن نحكم على حياة اليونانيين من خلال فلاسفتهم، فموقف هؤلاء الفلاسفة من الحياة ورؤيتهم للعالم ليست معيارًا نَتوسَّل به لتعريف كل ما هو هيليني، فعادة ما كان الفلاسفة

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 35 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

يُمثِّلون الحركة المضادة للذوق العام للمجتمع اليوناني. ولا ينسحب هذا الأمر على السفسطائيين الذين يُعدُّون، بحق، التجلّي القوي لروح الواقعية التي يعيشها الشعب اليوناني. وهم بذلك يُمثِّلون الحركة المناوئة للتيار المثالي للمدرسة السقراطية والأفلاطونية عبر إرادة مطلقة لرؤية الصواب في الواقع لا في العقل، فالشجاعة في مواجهة الواقع، وفقًا لنيتشه، هي ما يفرق بينهم وبين غيرهم من الفلاسفة الذين يجبنون أمام الواقع فيفرُّون إلى عالم المُثُل.

ثالثًا: إن الفضيلة أو الحكمة التي يرعاها السفسطائيون بهذا المعنى المحدد الذي يشتمل على أنواع متعددة من أنماط الحياة ومتطلبات المجتمع، ليست مجرد إنجاز تُحقِّقه ذات منعزلة برؤيتها الخاصة، بل هي تنتمي إلى العصر اليوناني وثقافته العامة، فمع السفسطائيين لا نستطيع أن نتحدَّث عن تأملات فرد معين فحسب، بل نستطيع التحدُّث عن حركة ثقافية لمجتمع بأكمله ونظرته العامة للحياة. وذلك بخلاف الحكمة التي أسَّس لها فلاسفة اليونان من أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو، فمثل هذه الحكمة الخاصة بقيت رهن تأملات الذوات المنعزلة، وذيوعها لم يتجاوز إطار التلاميذ والمريدين، وبهذا تبدو الفلسفة وكأنها نبتة اجتُثَّت من أرض بعيدة، وأريد لها أن تنبت في أرض غريبة عنها.

رابعًا: يُمثِّل السفسطائيون فئة حيوية حاضرة البديهة في المجتمع اليوناني، تُجرِي حوارات ومناقشات تحمل آراء سريعة ومتغيرة، تُوْهم أطراف الحوار بأنها تضع الحقيقة وتصطنع المُطلَق. أما الفلاسفة فيُمثِّلون فئة من المُسنّين المنهكين الذين يتابعون مفاهيم قديمة (آراء متباطئة)، ويُجْرون أحاديث راكدة وهم يتحدَّثون مع أنفسهم، وكأن ذلك ذكرى بعيدة لتلك الآراء المتقادمة. بينما كانت حكمة السفسطائيين – على غرار الحياة نفسها - تلقائية وحيوية، فاستجابة المرء التي تحفظ له كيانه وتُنمِّيه، ما هي إلا عملية تأكيد لمعنى الحياة، وكل استجابة من هذا النوع تعادل حُكمًا. والسفسطائي، بوصفه فردًا، له عالم ذهني كامل هو انعكاس نفسي لحياته الاجتماعية، فالمجتمع يُقحِم ذاته في الوجود الذهني للفرد، فهو إذ يُلقِّن الفرد اللغة والخلال الطيبة والعادات المُستحبَّة والدين والفنون العملية، يُمْلي عليه أحكامًا جاهزة، ليس على الفرد إلا أن يُردِّدها ثم يتفهَّمها رويدًا رويدًا، ويحيلها إلى أحكام صادرة عنه. وهو يرتضي هذا العالم في البداية دون اعتراض، لكنه يُصادِف دون ذلك عقبات، فالحياة على الرغم من تلقائيتها، تَتَبدَّى للمرء أكثر تعقيدًا أو غموضًا مما ظنه في البداية، فـ(الإنسان) يخدعه و(اللغة) تحيّره، وهو يصطدم بأشياء متناقضة وأشخاص يناقضونه، ويفطن إلى أنه قد خُدِع. فتجربة الخطأ تجربة خصبة؛ بمعنى أنها تؤدي به إلى التساؤل عن سببها، والبحث عن الطرق التي تُمكِّنه من أن يتجنَّب ما تجلبه عليه مواجهتها من أضرار، وإذا أدرك أنه أساء الحكم، انتهى إلى أن يتساءل كيف يحكم؟ عند ذلك بدأت لدى السفسطائيين ألاعيب اللغة الخفية وأساليب الحجاج القوية. أما الفلاسفة فقد بدأ لديهم (المنطق)، فالمنطق قد ظهر في اللحظة التي كان الفلاسفة فيها قد مَلُّوا تلك المذاهب التي يواجه كلٌّ منها الآخر ويناقضه؛ مثلما يتقابل، بصفة رمزية، وجه هرقليطس

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 35 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

الباكي ووجه ديمقريطس الضاحك، فشرعوا في دراسة العقل، ليعلموا كيف يُحسن المرء التفكير؟[18].

السفسطة والفلسفة وجهًا لوجه

يُمثِّل كل من السفسطائيين والفلاسفة، بحسب نيتشه، نمطين كبيرين من القوى المُسيطِرة على الحياة الفكرية في اليونان القديمة، فهنالك من جهة القوى المُنْفَعِلة، ومن جهة أخرى هنالك القوى الفاعِلة. وقد بنى نيتشه كل تفكيره، في عرضه للفلسفة اليونانية، على هذا التمييز. فالقوى المنفعلة تستوحي، على المستوى الفكري، نموذجَ (إرادة الحقيقة). أما القوى الفاعلة فإنها عكس السابقة تَتَجلَّى بشكل أساسي في فنون القول. فالقوة المنفعلة يمثلها سقراط، فهو أوَّل مُروِّج لها من أجل بلوغ مثال الحق، والقوة الفاعلة يمثلها السفسطائيون الذين ربَّما لم يسعوا إلى بلوغ مثال الحق، لكنهم حتمًا تساءلوا عن الحقيقة، مُتنزِّرين، دون أن ينتظروا جوابًا.

مع القوة الأولى (المنفعلة) تُمارِس أدواتُ القمع والتشويه والإلغاء فعلها ضد القوى الأخرى، فالقوة المنفعلة تثبت نفسها بمواجهة القوى الأخرى، يحكمها منطق (لا) أكثر مما يحكمها منطق (نعم)، فالـ(ضد) هو الذي يحوم في الأجواء لا الـ(مع)، والهدف هو البحث عن الحقيقة. فالكشف عنها دائمًا ما يكون بطريقة سلبية إلى حد ما، وكأنها بذاتها حدٌّ سالب. فآراء الآخرين وممارساتهم تُرفَض بدايةً، وينظر إليها على أنها أوهام وأخطاء، والعجيب أن تكون هذه الآراء الخاطئة، في ما بعد، هي الأساس الذي تُبنَى عليه حقائق هؤلاء، ولعل الذي دعاهم إلى هذا المسلك هو إنزال الفلسفة التي يحملونها منزلة العلم الدقيق، فهي الطريقة الوحيدة ولا شيء غيرها. أما القوة الثانية (الفاعلة)، فإنها لم تَتَصدَّ للبحث عن الحقيقة ولم تدَّعِ امتلاكها، وكل ما سعت إليه هو إتقان فنون القول، محاولةً بذلك تعليم أفضل سُبُل الحوار والإقناع. وهذا الموقف الذي اتَّخَذه السفسطائيون لا ينفي عنهم المعرفة، فهم يمتلكونها، ويجيدون تسويقها، لكن دون سعي لبنائها من خلال إثارة معركة ضد الخطأ أو ضد الأوهام الملازمة للعالم المحسوس بوصفه كذلك. يمكن لديهم ممارسة فعل بناء المعرفة، لكن دون حاجة إلى وضع العالم المعقول في مواجهة العالم المحسوس، بطريقة تحط من شأن الثاني لصالح الأول[19].

ولهذا وُصِف السفسطائيون في زمانهم بأنهم مُعلِّمون محترفون، ويبدو أن مهنة التعليم التي يمارسونها تُعطي انطباعًا عامًّا بأن هذا الشيء الذي يزاولونه لتلبية متطلبات المجتمع التعليمية يبتعد بهم عن قضايا الفلسفة ومقتضياتها، فالفلسفة أو (المُعلِّمة القديرة)، كما يُسمِّيها (هُسِّرل)، عاجزة تمامًا عن أن تُعلِّم بطريق صحيحة موضوعيًا، وقد كان (كانْط) يُحبُّ أن يقول: ليس في استطاعتنا أن نتعلَّم الفلسفة، بل التفلسف فحسب. فالعلم بقدر ما يكون علمًا بحق، يمكن تعليمه وتعلُّمه بالمعنى نفسه أينما كان[20]. والاعتراف التاريخي بالدور التعليمي والتثقيفي للسفسطائيين في زمانهم يجعلنا نَتبنَّى وجهة النظر التي تقول: إن ما كان يُعلِّمه السفسطائيون في المجتمع

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 35 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

اليوناني لم يخرج عن إطار العلم بهذا المعنى، فالتعلُّم بطريقة علمية لدى السفسطائيين ينأى عن كل مادة غريبة عن الذهن، ويعتمد في كل الأحوال على التلقائية وعلى ترديد فنون قولية تُستعمل بحسب المقام ومقتضى الحال. وقد شاعت هذه الفنون في المجتمع اليوناني وأصبحت من التقاليد العامة للمرافعات القضائية والسياسية، ومثل هذه الفنون الكلامية الرائجة لم تَرُق لسقراط، فقد ادَّعى أثناء محاكمته، عَدمَ إجادتها، مفضلًا عليها الدفاع عن نفسه بأسلوب حر لم تألفه ميادين الحجاج وساحات القضاء. ويبدو أن فلسفة سقراط القائمة على الاختلاف والتعاطي مع قضايا ومسائل غريبة عن ذهن المجتمع، هي التي كانت سببًا في جرِّه إلى الموت واتهامه بإفساد عقل الشباب اليوناني.

وقد نَتَجنَّى على السفسطائيين، إذا حصرنا نشاطهم في إطار القوى الفاعلة، فهم في حقيقة الأمر لديهم القدرة على الخضوع لإغراء جميع القوى التي تموج بها الحياة، فالحالة التي يعيشونها لا تفرض عليهم الشعور بالتناقض حيال هذه القوى المتصارعة؛ إذ الأمر لديهم لا يقتضي محو إحدى هذه القوى والتحرر الكامل من قوى أخرى. وقد صنع ذلك منهم مؤسَّسة ثقافيةً على درجة كبيرة من الاتساع والتسامح، بحيث يمكن لقوى عديدة الإقامة فيها ضمن جوٍّ من المصالحة مُزوَّد بقوى يسميها نيتشه: (قوى مُتفوِّقة)، وهذه القوى، بفضل البراعة في فنون الكلام، يمكنها تسوية الخلاف لدى نشوب أي صراع، وبذلك تَتَفتَّح القدرة دون إخضاع أو تكبيل بالأصفاد، وتُصبِح الحياة غير مُعرَّضة للقصور والضعف والعجز[21].

وبقدر ما آمن سقراط بالعدالة والحقيقة، بقدر ما أنكر المساواة بين جميع البشر. أما السفسطائيون فآمنوا بتأسيس العدالة ولو كان على حساب الحقيقة، وذهب بعضهم من أمثال (ألسيداماس) إلى حد الطعن في المؤسسة العبودية، وهو ما لم يفعله سقراط وتلامذته الذين اكتفوا بمساءلة حق فئة مختارة ومستنيرة بالحكم. بدلًا من ذلك آمن (هيبياس) بنوع من التضامن الكوني الذي يُسوِّغ حتى معارضة القوانين الوطنية من أجل علاقات أفضل بين جميع البشر. ربما ينبع هذا الاعتقاد من التسامح الذي شهدته (ديلفوس) إزاء الطوائف الأجنبية، والذي أسهم في توحيد اليونانيين والبرابرة في عصر الإسكندر، كما أسهم في حلِّ الدولة اليونانية التي كانت عزيزة على قلب أفلاطون. بالنسبة إلى هيبياس إن القوانين المحفوظة بالتقاليد فقط لا قيمة لها؛ لأنها تنطوي على التناقض، ولأنها تسمح بأحكام غير عادلة، فيما يمكن لقوانين الطبيعة، ونظرًا إلى كونيتها، أن تكون هي قوانين الحياة السياسية الديمقراطية. وقد نافح هيبياس عن القوانين الشفوية في وجه القوانين المكتوبة، ودافع عن حق الفرد عبر دفاعه عن المصلحة العامة. وفي (جمهورية) أفلاطون، حيث لا توجد دولة مثالية مطلقًا بين الدول التي يناقشها، يبدو واضحًا أن سقراط (والذي يتحدث باسمه أفلاطون) يؤمن بمجتمع لا تحكمه القوانين الديمقراطية، بل يحكمه فلاسفة طغاة تدرَّبوا منذ نعومة أظفارهم على أن يكونوا (حكماء) و(فاضلين). والعدالة، كما جاء في (الجمهورية)، تعني المساواة في الحقوق بين المواطنين الذكور الذين كانت أعدادهم محدودة، أما الأجانب والنساء والعبيد فاستُبعدوا خارج دائرة امتياز أفلاطون[22].

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 35 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

والذي أوحى إلى نيتشه تقسيم قوى الفكر في اليونان القديمة إلى مُنْفعِلة وفاعلة هي محاورات أفلاطون، فهي تُسلِّط الضوء تمامًا على تصارع القوى المنفعلة مع القوى الفاعلة؛ إذ تُظهِر جدلاً وحوارًا بين شخصية مركزية (سقراط) وبين محاورين (السفسطائيين) غالبًا ما تُلبِسهم ثوب اللطافة والسذاجة، وقد كان سقراط في سعيه الدائم إلى التغلُّب على محاوريه يمارس (حِيلًا عقلية) ليتمكَّن من الإجهاز عليهم والسُّخرية بهم، وهذا ما يُسمِّيه نيتشه بـ(الخبث السقراطي)، فمن أجل أن يتغلَّب على السفسطائيين، وهم خصوم أشدّاء يمارسون نوعًا آخر من الحِيل، وهي (الألعاب الكلامية)، نجد سقراط يلجأ إلى التهريج أمام الذوق العام الميَّال إلى القوى الفاعلة في المجتمع، تلك القوى التي أسّس لها السفسطائيون بكل جدّ واجتهاد من خلال ألعاب كلامية أضفت مرونة وحيوية على الجو العام الذي يعيشه شعب اليونان، فما يحتاج لأن يكون مبرهنًا كي يُصدَّق لا قيمة له، القيمة هنا فقط للعب والإغواء الذي يبعث سحر الانفعالات الحساسة.

وأمام هذه القوة الفاعلة، كان على سقراط أن يتَّخذ بعض الحيل الحجاجية ليهزم خصومه؛ إذ لم تكن هنالك أية صعوبة بالنسبة إليه ليُسجِّل نقاطًا، فالأمر رهين بارتكاب الخصم خطأ الدخول في حيلته، فإذا تَمَّ ذلك، فإن الخسارة حتمًا ستكون من نصيبه، ومن ضمن هذه الحيل الحجاجية التي وظَّفها سقراط ليوقع بخصومه نذكر ما يأتي:

أولاً: يُسنِد سقراط إلى نفسه مُهمَّة اختيار موضوع النقاش من نوع: (ماهي الشجاعة أو الفضيلة أو ... إلخ؟)، ضمن استعداد مُسبَق يتيح له اختيار أرضية الحوار؛ لمباغتة خصومه من خلال إيهامهم بأن هنالك أماكن مشتركة وأفكارًا سائدة يمكن الإنطلاق منها؛ بغية الوصول إلى مثال الحقيقة، إن أمكن ذلك. وهذه اللعبة تصنع مسافة فارقة بينه وبين من يحيطون به، وتجعل أطراف الحوار غير متكافئين في واقع الأمر، فهم ليسوا على ذات المستوى تجاه موضوع الحوار، لكن سقراط لتلافي هذا الواقع يتظاهر بأنه على قدم المساواة معهم، بينما هو متقدِّم عليهم تقدُّم المعلم على تلاميذه.

ثانيًا: يتَّخذ سقراط عادةً موقفًا محايدًا من الشخص الذي يتحاور معه، ويتظاهر بأنه لا يعرف شيئًا حيال موضوع النقاش، مما يسمح له باتِّخاذ مسافة بينه وبين نفسه؛ لأنه يعرف تمامًا، وخلافًا لمن هو أمامه، الدور الذي يلعبه؛ ذلك الدور الذي يظهر فيه سقراط بمظهر الساذج الذي لا يَكُفُّ عن طرح الأسئلة على محاوريه؛ لكي يُوقِعهم في التناقض، أو يُفقِدهم الثقة بأفكارهم وقناعاتهم الأولى، بحيث تبدو لا قيمة لها، وأنه يتوجَّب عليهم إمعان التفكير أكثر؛ لكي يذهبوا أبعد في الطريق التي يريدها، تلك الطريق التي يرسمها بشكل غير مباشر، مُستدرِجًا خصومه ليسلكوها دون وعي منهم.

ثالثًا: يتَّبِع سقراط عادةً منهج (فن التوليد) في حواراته، نائيًا بنفسه عن عرض أفكاره، فلا يقترح أي شيء إيجابي، ولا يؤكِّد أي أمر غير مؤكد، وهذا ما يجعل موقفه سلبيًا، فالحقيقة التي يبحث عنها لا تستطيع أن تفرض نفسها إلا من خلال دحض آراء أخرى، فمُحاوِره عادةً ما يجد نفسَه أمام نفسِه، دافعًا إياها إلى استيلاد الحقيقة من داخلها. وفي ذلك يقارن نيتشه سقراط بسمكة

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 35 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

الرعاد، هذه السمكة المكهربة التي تشلُّ فريستها. فحوار سقراط يتقدَّم من خلال دحض أفكار الآخرين ليتوصَّل أخيرًا إلى فكرة أصح؛ أي أن هذه الفكرة تقف ضد الأفكار السائدة في مواجهةٍ بين (ما يصمد) وبين (ما لا يصمد)، فالفكرة لا تظهر أبدًا بصورة مباشرة أو فورية، بل دائمًا بطريقة غير مباشرة عبر رفض قوى الوَهْم[23].

رابعًا: يَتعمَّد سقراط أن يجعل من حواره محادثةً تَتَّسم بالحيرة، دون أن يكون لها بداية مُقْنِعة أو نهاية واضحة. وعندما يطرح سقراط سؤالًا، فإنه لا يتيح لمحاوره أن يأخذ وقتًا للتفكير، ما يهمُّه هو فقط استمرار تدفُّق الحوار. وفيما تمضي هذه المحادثة، فإنها تأخذ باستطلاع صور جديدة لأسئلة قديمة، كما تقترح أجوبة في بعض الأحيان، إلا أنها في الغالب تفتقر إلى التركيز. وبدلًا من اتباع المسار المستقيم بالذهاب إلى الإجابة، انطلاقًا من السؤال، تأخذ المحاورة شكل رحلة مؤجلة باستمرار، يجد القارئ متعة فكرية غامضة ما بين إطنابها وتعليقها بين حين وآخر[24].

خامسًا: كان سقراط، عند انتهاء سفسطائي عظيم مثل غورجياس أو بروتاغوراس من حوار باهر أمام جمهور ما زال مسحورًا، يدَّعي عدم الفهم، أو كان يصل متأخرًا - عن عمد - بعد العرض؛ ليكون ذلك ذريعة ممتازة للطلب من الخطيب تلخيص حديثه، وأن يُعبِّر باختصار، إذا أمكن، عن المحتوى الأساسي لخطابه. وقد كان ذلك مستحيلًا، وكأنك تُقلِّص محادثة غرامية إلى نواتها العقلانية، أو كأنك تطلب من شاعر عظيم كالمتنبي أو بودلير تلخيص إحدى قصائده، فبالنسبة للفنون القولية ليس المهم ما هنالك من حقيقة، بل المهم هو ذلك الأثر الفاعل الذي يفقد قيمته عند محاولة تشويه مصدره[25].

اللغة بين ألعاب الكلام وإرادة الحقيقة

إن الفلسفات، بحسب (رسل)، تُصنَّف بشكل عام، إما طبقًا للنتائج التي تصل إليها، أو طبقًا للمناهج التي تَرْتَسِمها. فالمثالية، على سبيل المثال، تُصنَّف بالنتائج، والتجريبية تُصنَّف بالمناهج. وقد ظهرت هاتان الطريقتان كلتاهما في الفكر اليوناني، حيث كان الفلاسفة يمثِّلون المسار الأول، تحت ما يُسمَّى بـ(الفلسفة النظرية) المُسْتلهَمة من حب المعرفة. والسفسطائيون يُمثِّلون المسار الثاني، تحت ما يُسمَّى بـ(الفلسفة العملية)، المُسْتلهَمة من حب الفعل. وبناء على هذا التصنيف يُمكن أن تُعدُّ السفسطة حركةً تَعتدُّ بالنشاط أكثر من اعتدادها بالنتائج التي يمكن أن يُوصِل إليها ذلك النشاط. فلا شك أن ممارسات السفسطائيين توصلهم إلى حقائق يريدونها، إلا أن هذه الحقائق لا تُعدُّ غايات بحد ذاتها؛ لإمكان تبدُّلها أو حتى تناقضها مع بعضها بعضًا من حال إلى حال.

ومن هنا برز اهتمام السفسطائيين بالأدوات أكثر من اهتمامه بالغايات، فهم يستمتعون بمطاردة شيء لا يرغبون في إمساكه، وقد وجدوا ضالتهم لتحقيق ذلك في فنون القول وأساليب

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 35 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

الكلام، التي كوَّنت لهم ألعابًا غير متناهية، تنسجم وتلك اللَّذة التي ينشدون. فاللغة بوصفها وسيلة، لقيت من السفسطائيين اهتمامًا بارزًا، حيث أضفوا عليها نمطًا من الألعاب التي جلبت لهم متعة منقطعة النظير في إرهاق خصومهم وغلبتهم بشكل يفوق المتعة المتعينة في حال لو جعلوا منها وسيلة لبناء النتائج ونحت الحقائق. وقد وجد الفلاسفة اليونانيون في طريقة السفسطائيين التي تجعل من المعرفة أداة لكل نشاط ناجح، وليس غاية بذاتها، مبعثًا للهزء والازدراء، ولم يقتصر ذلك على فلاسفة اليونان فحسب، بل أصبح موقفًا عامًّا لمعظم المذاهب الفلسفية الكبرى على مرّ تاريخ الفكر؛ ذلك أنَّ المعرفة، وإن كانت الرغبة فيها نادرة، قد ظلت منبع كل ما هو جدير بالاهتمام في عالم الفكر، وبالتالي ليس غريبًا أن تبقى لكلمة (السفسطة) تلك الدلالة العامة المرتبطة بالثرثرة أو بكل جدل ليس وراءه طائل.

وقد كان لهذين النهجين (السفسطة) و(الفلسفة)، منذ اليونان القديمة، أثر في نشوء نمطين من الخطاب وطريقتين لاستعمال اللغة، لم يَتوقَّف بينهما الصراع. فمع القوة المنفعلة كان هنالك نموذج ردِّ الفعل السقراطي، الذي يبحث عن الحقيقة عبر الجدل، ويتصدَّى في سبيل الوصول إليها لمختلف أوجه الجهل أو البلاهة أو سوء النية. فاللغة في هذا النوع من الاستعمال ليست سوى أداة في خدمة واقع أرفع منها، هو الحقيقة، فالحقيقة متعالية حتى على الأداة التي تبنيها وتصنعها. وأمَّا مع القوة الفاعلة فقد كان هنالك حوار السفسطائيين، الذي لم يُرِد الحقيقة بقدر ما يسعى، ببساطة، للإقناع وإحداث تأثيرات عملية على مستمعين، كان الهدف غالبًا هو الحصول على تأييدهم بقوة الكلام فحسب، فالخطاب الإقناعي يحمل شيئًا، ولا يهمُّه إن كان هذا الذي يحمله عن الشيء قليلًا أو مُزيَّفًا ما دام مُقْنعًا، فالزيف أو الكذب عادة ما يكون مرتبطًا بإرادة مسبقة. وقد كان للفلاسفة دور بارز في جعلنا نعتقد بأن للسفسطائيين إرادة، ليست فقط مُسبَقة، وإنما مستمرة أيضًا في سعيهم الدائب للخداع ومجانبة الحقيقة، وكما يذهب (هيوم): "إنه من المستحيل لأحد فعل ذلك على نحو متواصل. فإذا دأبت على تجاهل الحقيقة بالقول: إنها بيضاء كلما كانت سوداء، فإن أبيضي سوف يُفهَم، بتأثير اللغة، على أنه أسود بمرور الوقت، فالكلمات التي استعملها في الكذب والخداع سوف تُبدِّل معانيها باستعمالي المستمر لها[26].

فاللغة مع السفسطائيين إذًا تُعدُّ فنًّا قوليًا وألعابًا كلامية، فهي ليست مجرَّد أداة، بل هي سلطة بحدِّ ذاتها. فقوتها قائمة في ألعابها. واللعب وظيفة قديمة للغة، أهملها اللسانيون، والتفت إليها الفلاسفة على مرّ الأزمان، وقد وَجَدتْ، في عصرنا، اهتمامًا بالغًا على يد الفيلسوف الكبير (لودفيغ فتغنشتاين). ففي فضاء اللعب تطفو الاختيارات المتعدِّد، وحتى المتصارعة منها، دون حاجة إلى حسم أو إقصاء. فقيمة اللعب لا تقاس بما يثيره من متعة فحسب، بل تكمن أيضًا في أسلوبه الرشيق في السيطرة على الفوضى المنبعثة من القوى المتصارعة، فيجبرها، وفقًا لقانونه الخاص، على اتخاذ شكل مُنظَّم ومتناغم، فذلك هو طموحه الأكبر. وهذا ما نجده ماثلًا في ممارسات السفسطائيين داخل مجتمع المدينة، فألعاب اللغة لديهم جعلت من التعايش، بوصفه نتاجًا للتواصل، أمرًا ممكنًا بين أكثر الآراء تناقضًا، ليس لأن أجواء التوتر والخصومة غائبة

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 35 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

عن ممارساتهم، فالصراعات الكلامية كانت أحيانًا من أعنف ما يمكن تصوره، لكنَّ الأمور لم تحسم ضمن حقائق مطلقة، فقد كان المجال مفتوحًا دائمًا لإمكانية إعجاب متساو بمختلف الآراء المطروحة.

إذًا يَكْمن الخلاف بين فلاسفة اليونان والسفسطائيين في نظرتهم إلى طبيعة المواقف التي ينطلقون منها في بناء خطابهم الفكري، فمواقف الفلاسفة مرتبطة بحقائق عقلية تأخذ طابع الضرورة ونقيضها محال. بينما هي لدى السفسطائيين آراء عملية تأخذ طابع الاحتمال ونقيضها ممكن، ومن هنا برزت تلك المساحة الواسعة لديهم لممارسة ألعاب الكلام. وينتج عن ذلك عدم اعتبار (الخطأ) هو السمة الرئيسة التي يجابهها الفكر؛ إذ توجد هنالك أمور كثيرة تهدِّده كـ(الوهم) و(الجهل) و(الخرافة) ...إلخ، فالخطأ لدى هؤلاء المُعلِّمين المحترفين ليس خطًّا بيانيًا أو اتجاهًا يُعبِّر حُكمًا عن السلبي في الفكر. وفي ذلك، كما يرى دولوز، تغيير كبير ليس في المفاهيم فقط، وإنما في صورة الفكر عندما يحلّ الجهل والخرافة محل الخطأ والحكم المسبق للتعبير عن السلبي في الفكر. وأكثر من ذلك عندما يؤكِّد (كانط) أن الفكر مُهدَّد ليس من جانب الخطأ بقدر ما هو مهدد من جانب الأوهام المفروضة التي تأتي من داخل العقل. وقد دفع ذلك النمط من التفكير بالسفسطائيين إلى إبداء لا مبالاة عامة تجاه الحقائق العقلية التي يفرضها فلاسفة عصرهم. فالفلسفة التي تدَّعي امتلاك الحقيقة، لا تعدو كونها مجرد (محاولة) في التفكير، فأي عنف يجب أن يُمارِس على الفكر لكي يدَّعي مصادرة الحقيقة؟! فهناك إمكانية للفكر تبقى كامنة داخله تُكْسِبه قدرة محدودة على الإبداع، تبرز كمجموعة من الإشارات المُلتبِسة التي تظهر للعيان وتتحوَّل إلى سمات بيانية أو ألعاب كلامية لا متناهية لها طابع إقناعي. إنه الفكر من حيث هو كذلك حتى عندما يجنح إلى أشكال من السخرية وصرير الأسنان والصرخات والهذيان، فإن كل ذلك يقسره على الإبداع أو محاولته[27].

فالخلاف بين الفلاسفة والسفسطائيين يعود، فيما يعود، إلى طبيعة ما يمكن أن تُشحَن به اللغة، فهي لدى الفلاسفة مشحونة بأفكار يُراد لها أن تكون حقائق موضوعية، وهي لدى السفسطائيين مشحونة بآراء ذاتية تَتَبدَّل بتبدُّل المواقف وتَتَغيَّر وفقًا للفائدة التي يرجوها المتكلم. فهي آراء يتعذَّر إبلاغها بشكل موضوعي؛ لكونها لا تندرج في المعاني العمومية التي تتألف مع بعضها لتشكل أفكارًا لا علاقة لها بالحالة النفسية للمتكلمين، ومع ذلك لم يُطبِق السفسطائي شفتيه أمام هذه الآراء التي بدت للفلاسفة وكأنها حقائق مُزيَّفة، ولم يُبالِ كذلك بما يُمكِن أن تجلب له من عار؛ لقناعته بأنه لم يفعل ما يوجب ذلك، فهي لديه آراء ولم يُرِد لها يومًا أن تكون حقائق، سواء أكانت صحيحة أم مُزيَّفة. وقد نعذر الفلاسفة عندما يحاكمون آراء السوفسطائيين محاكمتهم للحقيقة، فكثيرة هي الآراء التي حملتها ألعاب الكلام، بتلفيقها البديع، ووضعتها في دائرة منطقية مذهلة، محدثةً بذلك وَقْعًا يُشبه وَقْع الحقيقة الصارخة.

فالسفسطائية هي فلسفة إنسانية؛ أي تُرتكِز على الإنسان، وتجعل الفرد في رؤيتها للعالم مركز كل شيء، فالذات الإنسانية أصبحت أساسًا لكل آراء السفسطائيين ومشروعًا فكريًا تتطلَّع إلى

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 35 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

بنائه. ولهذا ارتسم للحقيقة وجه جديد يظهر في كل أمر تتأكد منه الذات الإنسانية بشكل مطلق؛ أي إن الحقيقة بهذا المعنى هي حالة من الوعي الذاتي، وهذا ما يبين إلى أي مدى أصبحت الذات الإنسانية مهمة لدى السفسطائيين، فالمعيار الموثوق للحقيقة كامن فيها. بينما كان الفلاسفة الآخرون يعرفون الحقيقة بتعابير موضوعية تُركِّز على مدى تطابقها مع عالم المُثُل بعيدًا عن أي انطباعات فردية.

ولهذا فإن طبيعة المواقف التي يولِّدها السفسطائيون في حواراتهم تأخذ طابعًا مرنًا لآراء تَنْفلِت من ذاتها وتَشْرع في التلاشي والهروب حال ظهورها، ليلفّها النسيان سريعًا، أو تتدافع مختلطة بآراء أخرى تمضي دون إمكان لكبحها أو السيطرة عليها. تلك هي متغيرات لا متناهية يتساوى فيها ظهور الآراء واختفاؤها، فالسفسطائيون يفقدون آراءهم دائمًا، ولا يسعون إلى حفظها ليتمكَّنوا من التحرك في مساحات واسعة من التناقض والتضاد غير المرصود. أما الفلاسفة فإنهم يسعون إلى التعلُّق بآراء ثابتة (حقائق) متوقفة، متمسكين بقواعد حافظة (كما يسميها دولوز) لمفاهيم خاصة تَنْتظِم تلك الأفكار وتجعلها مترابطة كـ(التشابه) و(المجاورة) و(السببية) ... إلخ. مثل هذه المفاهيم تُسهِم في تنظيم الأفكار وتسمح بالانتقال من الفكرة الواحدة إلى الأخرى، ضمن لغة دائمًا ما تُعِيد تكوين ذاتها باعتبارها الحافظ أو الشاهد على هذا التنظيم[28].

وقد جَلبتْ مرونة السفسطائيين هجومًا عنيفًا عليهم، فمن وجهة نظر كثير من الفلاسفة: إن الخواء الذي تجلبه ظاهرة السفسطة يتجاوز تناقض الآراء والتمييزات غير الصحيحة بين القضايا والأثر اللاأخلاقي للغموض المُتعمَّد، بل وحتى عبارات الكذب التي يهذر بها كل شخص كاذب، فكل هذه الأمور لا تَقدِر على مقاربة ظاهرة السفسطة؛ ولذلك فإن السفسطائي لدى هؤلاء الفلاسفة، هو الإنسان المخادع، الإنسان الكاذب الذي يفتقر كليًا إلى أي إحساس بالصدق. والسفسطائي لم يوضع في فئة المُقلِّدين الجهلة من دون تأمُّل في المحاورات الأفلاطونية، فهناك تمييز أُقيم بين نمطين من المقلدين الجهلة، أحدهما يعتقد أن لديه معرفة رغم أنه ليس كذلك، والآخر (الذي يمثله السفسطائيون) يعي سرًا افتقاره إلى المعرفة، ولكنه مضطر بحكم الزهو أو بحكم القلق من خسارة مكانته العالية إلى مداراة هذا الجهل عبر ضربٍ من ألعاب الكلام، يجد فيها السفسطائي وسيلة لأن يظل منتصرًا ببقائه صاحب الكلمة الأخيرة في جميع الحوارات والمجادلات (سوى حوارات سقراط بالتأكيد). وقد عُدَّت هذه الألعاب لدى باقي الفلاسفة نوعًا من الكلام الأجوف الذي يرمي إلى خداع الناس وتضليلهم[29].

وفي هذا الاتهام المُوجَّه للسفسطائيين من قبل الفلاسفة ظلم كبير؛ ذلك أن الأمور التي يخوض فيها السفسطائيون تفتقر إلى البنية العقلية التي يفترض الفلاسفة وجودها في واقع الحياة، ومثل هذه الأمور لا تقاس بميزان (ما هو موجود) فتكون معرفة، أو (ما هو غير موجود) فتكون جهلًا، وفقًا للنظرية التي وضعها سقراط، والتي ترى أن المرء لا يمكن أن يعرف إلا ما يوجد، ولا يمكن أن تحصل معرفة ما لا يوجد. و(الظن) الذين يعتبر بين المعرفة والجهل ينبغي أن

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 35 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

يكون موضوعه شيئًا لا هو موجود ولا هو غير موجود، وبذلك ينبغي أن يبحث عنه بين الجهل والعلم، إنْ وجد شيء كهذا. وبناء على هذا التحديد المفهومي الذي يضعه سقراط لا يمكن أن يتساوى الظن مع الجهل، فمفهوم الظن مختلف تمامًا عن مفهوم الجهل، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون مرادفًا له أو حتى طَرفًا نقيضًا يقابله، بل إن الظن يقع في دائرة أخرى غير تلك الدائرة التي تُقابِل بين المعرفة والجهل. وبذلك، كما يرى سقراط، فلا (ما يوجد) ولا (ما لا يوجد) هو موضوع الظن. وبناء على ذلك فإن افتراض بنية عقلية تنتظم تلك الأمور الظنية التي يخوض فيها السفسطائيون ضمن ألعابهم الكلامية يجافي الصواب، فمثل هذه الأمور لا تقاس بميزان المعرفة والجهل، وإنما تُقاس بميزان الإمكان وعدمه، فما هو ممكن اليوم قد يكون غير ممكن غدًا، والعكس ليس صحيحًا وإنما محتمل.

اللغة بين التواصل وإبداع المفاهيم

وُجِدت اللغة في حياة البشرية الأولى ليكون ثمة مجال للتواصل بين أفراد المجموعة الواحدة، تواصلٌ يكاد ينحصر في توزيع الأعمال وتأمين سُبُل العيش. وعندما أَخذَتْ أفكار البشرية تَتَطوَّر لتستقل عن هذا الواقع وتصبح أداة مجردة لخدمة الحقيقة، صار التواصل حوارًا داخليًا يجريه الفرد مع ذاته، ويحرص أشد الحرص على أن تكون اللغة صورة ولوحة لتمثيل الفكر الذي يحمله. فالاستغراق مع الذات أخذ يُركِّز على صقل اللغة ضمن عالم مثالي لا يقبل أي تشويه أو فوضى، فالبنية القاعدية للغة صورة لتمثيل البنية العقلية. ومحاولة التوليف بين وظيفة اللغة، بوصفها أداة للتمثيل وبناء المفاهيم أو بوصفها أداة للتواصل، بدأ يُحدِث تشويهًا لبنيتها القاعدية، فلم تَعُد تلك المرآة قادرة على أن تعكس الفكر كما هو. واللغات جميعها بهذا تكون قادرة على تلبية حاجات التواصل العملية إلا أنها ليست جميعها جديرة بأن تكون حتماً ملائمة لبنى الفكر المجردة، ومن هنا شعر فلاسفة اليونان بأن ممارسات السفسطائيين الخطابية واللعب الذي يوقعونها على اللغة، هو بمثابة إقصاء لوظيفتها التمثيلية، تلك الوظيفة الأساسية من وجهة نظرهم للتصورات العقلية وبناء المفاهيم. فالوظيفة التواصلية لديهم لا غنى عنها للمجتمع، ولكنها ليست الغاية الأساسية من وجود اللغة على الإطلاق.

وقد نتج عن ذلك وضع سُلَّم تراتبي لوظائف اللغة المُتعدِّدة، فجُعِلتْ الوظيفة التمثيلية للغة سابقةً الوظيفة التواصلية، فالتعبير عن الشيء، وفقًا لذلك، لا يكون إلا بعد القدرة على تَمَثُّله أولًا، فبدون هذه المقدرة لا نستطيع توفير الرموز الضرورية للتعبير عنه، فالحيوان الذي يُعبِّر عن عدوانيته بِنَفْش ريشه يعجز عن التعبير عن عدوانيته إذا نُزِع الريش عن جلده. كذلك لو حُرِمنا نحن من الكلمات، مثل ما يحدث لبعض المصابين بالجلطة الدماغية أو غيرها من إصابات الدماغ، لما استطعنا التواصل باستخدام اللغة[30].

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 35 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

وفي ما سبق نجد خلطًا بائنًا بين وظيفتيْ اللغة: (التواصلية) و(التعبيرية). فالتعبير، لدى الفرد الواحد، عن الشيء قد يستدعي تمثيله أولًا، أما التواصل، الذي يقتضي طرفين، فلا يشترط نظامًا تمثيليًا يسبقه، بل إن العكس هو الصحيح، فالتواصل عادة هو ما يسبق التمثيل؛ ليضفي عليه طابعًا تواضعيًا وشرعيًا لدى المتكلمين، وبدون ذلك قد يكون هنالك تمثيل، لكن حتمًا لن يكون هنالك نظام أو قدرة على التواصل يتبعه. والطائر المنزوع ريشه فَقَدَ سمة التعبير عن عدوانيته، لكنه لم يخسر قدرته على التواصل، لأنه لم يمتلكها في هذا الموطن، ولأن عدوانيته باقية على الرغم من ذهاب ريشه.

وفي هذا العصر نجد فئة من الفلاسفة واللسانيين الذين يتحدثون عن وظائف اللغة عادة ما يُظهِرون أهمية بعض هذه الوظائف من خلال الانتقاص من وظيفة اللغة التواصلية، وكأنهم بهذا الفعل يعترفون ضِمنًا بأن وظيفة اللغة الأساسية والأولى هي الوظيفة التواصلية. فهذا (لوسركل) في كتابه القيِّم (عنف اللغة) يذهب إلى "أن اللغة بمجرَّد تسميتها للأشياء تُتِيح لها الخروج إلى الوجود، وهذا يعني أن اللغة ليست مجرَّد آلة تواصل وأداة استكشاف وفهم، تكمن وظيفتها في إشاعة معان ظاهرة أصلًا وموجودة في الأفكار. بل هي تقوم بوظيفة أسمى من ذلك كثيرًا، وهي الكشف عن الوجود، حيث إن تسمية الكائنات، بحسب، هيدغر، تُرشِّحها للوجود من خارج وجودها"[31]. وهنالك فئة من الباحثين في سعيها للانتقاص من الوظيفة التواصلية للغة، أخذت تهدم مفهوم اللغة المتعارف عليه بوصفها إشارات وعلامات، واستبدلته عوضًا عن ذلك بنظام يضم مجموعات من الخلايا والألياف العصبية الموصلة. وقد دعا ذلك الأمر صاحب كتاب (اللغة وسلوك الأنسان) إلى القول بأن اللغة نظام تمثيلي، وليست وسيلة للتواصل، وهذا ما جعلها مصدر الإدراك البشري الفريد، لا نتيجة له[32].

وهذا التناظر بين وظيفتي اللغة التواصلية والتمثيلية يرجع إلى عصر اليونان القديمة، وتجلَّى ذلك بشكل واضح في ممارسات كل من السفسطائيين والفلاسفة، فالفرق بينهما ليس فرقًا في القرب أو البعد من نقطة معينة، بل هو اختلاف في المسار كما لو أن كل فئة تقطن في مدار خاص بها دون أدنى تماس أو تلاق مع الفئة الأخرى. فالسفسطائي يمارس الحوار والإبداع عن طريق الكلام وألعابه التواصلية، بينما يمارس الفيلسوف التفكير عن طريق إبداع المفاهيم وابتكارها، فهو يُجِيد لعبة المفاهيم، حيث يميّز بين المفاهيم الناقصة والعشوائية وتلك التي لا تصمد لحظة واحدة أمام الصحة المنطقية. فيستدعيه كل ذلك إلى إعادة إنتاج المفاهيم وصياغتها بطريقة صائبة مع الأخذ بعين الاعتبار الحيطة والحذر من كل المفاهيم الدارجة التي تشيع في اللغة العادية، ويتقبَّلها الناس دون تحفظ أو تمحيص.

ومن هنا يمكن القول بأن الفرق بين الفلاسفة والسفسطائيين لا يكاد يخرج عن فضاء اللغة وطبيعة استعمالاتها، وإذا استعرنا من (فتغنشتاين) عبارته الشهيرة: (حدود لغتي حدود عالمي)، فإن اللغة هي الأداة التي شكَّلت حدودًا مائزة بين كل من السفسطائين والفلاسفة. ففضاء السفسطة هو التواصل وحدود عالَمها هو اللعب بالكلمات. وأما فضاء الفلسفة، فهو التمثيل،

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 35 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

وحدود عالَمها هو إبداع المفاهيم. وعلى تلك الحدود ظلت الفلسفة تراهن على بقائها طيلة فتراتها الممتدة، وفي وقتنا المعاصر جعل الفيلسوف الفرنسي (جيل دولوز) من مشروعه الفلسفي تطويرًا لهذا الجانب، حاصرًا مهمة الفلسفة في إبداع المفاهيم وتطويرها. فذِكْر مصطلح (الإبداع) يرتبط عادة بالفنون لكونها قادرة على إيجاد كيانات روحية متخيلة. وحصر فضاء الإبداع على الفنون لا يتَّفق وطبيعة الحقول المعرفية الأخرى القادرة على خلق مثل هذا الفضاء. فالفلسفة، على سبيل المثال، مُبدِعة لكونها الحقل المعرفي القائم على إبداع المفاهيم؛ فإبداع مفاهيم دائمة الجدة، هو موضوع الفلسفة. فاقتضاء المفهوم للإبداع يحيل إلى الفيلسوف، كما لو كان يمتلكه بالقوة، أو يمتلك القوة أو القدرة على ذلك. فهذه المفاهيم تظهر، وتظل أولًا وقبل كل شيء، موقَّعة من قبل مبدعيها نحو: (جوهر) أرسطو و(كوجيتو) ديكارت و(موناد) ليبنتز و(شرط) كانط و(قوة) شيلنغ و(ديمومة) برغسون[33].

فإذا أردنا أن نعرّف الفلسفة بما لا تكونه، فإنه واجب علينا أن ننفي عنها تلك التعريفات الشائعة التي يُظَن أنها تُعطي الفلسفة الكثير، لكنها في واقع الحال تُجرّدها من كل شيء. وأولاها بذلك النفي، هو القول بأن الفلسفة تَأمُّل أو تفكير أو تواصل، فالاعتقاد بأن الفلسفة هي واحدة من هذه الميادين الثلاثة هو ناتج عن قدرة كل ميدان على توليد أوهامه الذاتية والتستُّر وراء ضباب يرسله خصيصًا لذلك. فالفلسفة ليست تأمُّلًا؛ لأن التأملات هي الأشياء ذاتها من حيث يُنظَر إليها في إطار إبداعات مفاهيمها الخاصة. والفلسفة ليست تفكيرًا؛ لأننا نستطيع التفكير في أشياء كثيرة دون حاجة إلى الفلسفة، فالعلماء بوصفهم علماء لم ينتظروا أبدًا مجيء الفلاسفة لكي يتفكّروا في علومهم، والقول بأنهم يصيرون بهذا التفكير فلاسفة هو، بحسب تعبير دولوز، نكتة فاشلة ما دام تفكيرهم ينتمي إلى إبداع كل واحد منهم ضمن حقل اختصاصه. والفلسفة ليست تواصلًا، ولن تجد أي ملجأ نهائي في التواصل الذي لا يعمل بالقوة إلا في مجال الآراء؛ لأجل خلق (إجماع)، وليس من أجل إبداع المفاهيم. فحوار السفسطائيين الديمقراطي في مجتمع المدينة لم ينتج عنه أدنى مفهوم. فالمفهوم، كما يقول دولوز، كان بمثابة العصفور المناجي لنفسه والمستهزئ الذي كان يُحلِّق فوق ساحة معركة الآراء المتنافسة التي يمحو بعضها بعضًا (كحال الضيوف السكارى في المأدبة). وفوق كل هذا وذاك، فإن القول بأن الفلسفة ليست تأمُّلًا أو تفكيرًا أو تواصلًا، يرجع إلى كون هذه الحقول الثلاثة ليست ميادين معرفية، وإنما هي آلات لتشكيل كليات (موضوعية أو ذاتية أو بين ذاتية) داخل مجمل الميادين، ولا ينفي هذا القولُ وجوبَ إبداع الفلسفة لمفاهيم خاصة بهذه الآلات الثلاثة. وبناء على ذلك يمكن تعريف الفلسفة بأنها: المعرفة بواسطة المفاهيم الخالصة، مع الأخذ بعين الاعتبار، أنه ليس هنالك تعارض بين المعرفة بواسطة المفاهيم والمعرفة عن طريق بناء المفاهيم[34].

والفلاسفة لا ينفكُّون عن تكوين مِظلَّة من المفاهيم بلغة تقنية ومصطلحات خاصة، والسفسطائيون بممارساتهم العامة وألعابهم الكلامية يُحدثون شقًّا في المظلة، يسمح لهم بتمرير آراء من شأنها أن تصنع تواصلًا حرًا ومُنطلِقًا بين أطراف الحوار دون مُصادرة أو ادِّعاء؛

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 35 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

وهذا يعني أن السفسطائيين يصارعون تلك الحقائق المفروضة من قبل الفلاسفة بشكل أو بآخر أكثر ممَّا يصارعون الآراء المضادة. وهذا العمل شيطاني بالنسبة للفلاسفة؛ لكونه يَظهر في شقوق فاصلة بين حقول نشاطهم، ويقفز فوق الحواجز والتسويرات التي يرسمونها بين المفاهيم.

والفلاسفة على نحو مضاد يصارعون الآراء بوصفها تيارًا للتباينات، ومن هنا لن تقف الفلسفة إلى جانب الرأي، ولن يحلّ الرأي، وفقًا لدولوز، محل الفلسفة. فالمفهوم، بوصفه مقصد الفلسفة، ليس مجموعة من الأفكار المترابطة شأن الرأي، وليس نظامًا من الأسباب المُكوّن لنوع من الرأي الأعلى (الأوردوكسا) المُعَقْلن؛ فما هو كافٍ للأفكار الجارية لا يكفي المفاهيم التي يجب إبداعها، فالأفكار ليست قابلة للترابط إلا كصور، وليست قابلة للانتظام إلا كتجريدات، فمن أجل الوصول إلى بناء المفهوم، يجب تجاوز هذه الأفكار وتلك؛ لكي يتم الوصول بأسرع ما يمكن إلى موضوعات عقلية قابلة للتحديد بوصفها كائنات حقيقية. هذا ما كان يبيّنه (سبينوزا) أو (فيخته): علينا أن نستخدم الأوهام التخييلية والتجريدات، ولكن فقط بالقدر الضروري للوصول إلى مسطح بحيث نمضي من كائن حقيقي إلى كائن حقيقي آخر، ونعمل بطريقة بناء المفاهيم. والحصول على هذه النتيجة ممكن في حال أصبحت المتغيرات غير قابلة للفصل وفق مناطق من التجاور واللاتمايزية، فالمفهوم هو مجموعة من المتغيرات غير المتفاصلة التي تنتج أو تُبنَى فوق مسطح محايثة ما، حتى (الكوجيتو) ليس إلا رأيًا أو رأيًا أعلى (اعتقاد)، ما دمنا لا نستخرج منه المتغيرات غير المتفاصلة التي تجعل منه مفهومًا، شرط ألا نستخدمه كمظلة أو مأوى[35].

خاتمة

لقد كُتِب للتعاليم الفلسفية أن تفرض سيطرتها على الحياة الفكرية، وأن توهمنا بأنها كانت المستحوذة على عقول الناس في اليونان القديمة، وقد كان للنشاط النظري والتأليف الفلسفي دور كبير في حفظ هذا الزعم وإشاعته في الأزمان اللاحقة. ولا جَرَم أن الأمر بخلاف ذلك، فكثيرًا ما ارتاب الناس في قدرة الفلسفة على طرح تعاليم إيجابية، بل إن هنالك توكيدًا مُستمِرًا بين مختلف المدارس الفلسفية، مفاده أن الفلسفة لم تكن سوى ممارسة مفاهيمية ونشاط توضيحي. فالفلسفة، كما يقول فتغنشتاين في عبارته البسيطة والمُدمِّرة: (تترك العالم على حاله)[36]. وبخلاف ذلك فقد كانت تعاليم السفسطائيين، بجانبها التجريبي، تُعدُّ نشاطًا تواصليًا حيويًا، يسعى إلى تقديم ما هو عمليّ ومؤسَّسي لتنظيم حياة الناس.

ويظهر أثر الاختلاف بين الفلاسفة والسفسطائيين، بشكل بارز، في الطريق الذي تسلكه كل فئة في سيرها نحو اللغة. فذات يوم وصف أرسطو الخيال بأنه قدرة الذهن على تمثيل ما لم يكن مُدركًا من قبل، فهنالك أفكار ما زالت بحاجة إلى كلمات تُعبِّر عنها، وربما يكون الخيال لدى الفلاسفة، هو القدرة على إجراء ذلك التمثيل عبر اللغة[37]. وأما السفسطائيون فلم يتعلَّقوا بالخيال بقدر تعلُّقهم بما هو (مُعاش)، فما هو معاش يتيح كفاءة عالية للتواصل عبر اللغة. فاستعمال اللغة إذًا يفرض مسافة بين الفئتين، لجهة كون اللغة أداة تمثيل ولجهة كونها أداة تواصل.

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 35 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

وبذلك فقد سادت لدى اليونانيين القدماء طريقتان إزاء مسؤولية المرء تجاه لغته، فالطريقة الأولى سار عليها السفسطائيون وفلاسفة ما قبل سقراط، حيث رأت في اللغة نشاطًا حيويًا، ووسيلة لا تقل أهمية عن الوظائف التي تُؤدِّيها، فالكلمات لديهم لها أرواح تتجسَّد من خلالها كائنًا حيًا، يتماهى في كل ما هو إنساني ويضيع فيه. أما الطريقة الثانية فقد سار عليها أغلب الفلاسفة اللاحقين، ناظرين إلى أن اللغة وُجِدت لتكون أداة للتأمُّل ومادة لخدمة الفكر، على نحو وجود الأشجار التي خُلقت لأجل أخشابها. وقد بقيت الطريقة الثانية بجانبها التحَكُّمي هي السائدة في عالمنا، ويبدو أن النظرة المتغطرسة لكثير من الفلاسفة المعاصرين تجاه اللغة هي امتداد لذلك.

وإنه لمن الخطأ أن نُقِيم اختلافًا بين السفسطائيين والفلاسفة بناء على براعة الفئة الأولى في الكلام وبراعة الفئة الثانية في التفكير، فكلا الفئتين لا غنى لها عن التفكير (أو الإقناع) بالكلمات؛ ذلك أن الإيمان الذي كان يحوم في أجواء اليونان القديمة لم يكن سماويًا، بل كان أسطوريًا، وكلا السفسطائيين والفلاسفة كانوا يُسلِّمون بهذا الإيمان الذي يرى أن الحقائق والآراء لا يمكن أن يُوحَى بها، فتَحَقُّقها شِعْريّ، لا يكون إلا بالكلمات فحسب. ومهما بلغت براعة كل فئة في الشيء الذي نُسِب إليها، فإن العلاقة التي تجمع بين الأفكار والكلمات هي علاقة إمكان واحتمال فقط. فتشكيل فكرة ما من مجموعة كلمات لا يعدو أن يكون تركيبًا محتملًا من بين توليفات أخرى تتيحها إمكانات اللغة. والفرق بين السفسطائيين والفلاسفة يَتحدَّد في استثمار الممكن والمحتمل الذي تُتِيحه علاقة التفكير بالكلمات، فعادةً ما يكون الفيلسوف مسؤولًا وجادًا أمام هذه العلاقة، بينما نجد السفسطائي لعوبًا وهازلًا، ولا يبالي بأن تكون العلاقة مُدرَكة على نحو زائغ، ما دامت تحتوي على عنصر التشويق. فبإمكان الحقيقة التي يُؤسِّس لها الفلاسفة أن لا تكون مُشوِّقة، لكن (الاحتمال) و(الإمكان) الذي يركض وراءه السفسطائيون لا يستغني عن هذا الواجب.

وهذا الموقف من استعمال اللغة كان سببًا في عدم نجاح الفلاسفة في دخول حوار جاد مع السفسطائيين، وحتى حوارات سقراط مع بعض السفسطائيين لم تكن سوى مَثَل للتعالي والمباغتة والادِّعاء. ومهما يمكن أن يقال عن سلبية حوار السفسطائيين، فإن هذه الحوارات طريقة جيدة للتواصل والتعلُّم دونما حاجة للتعالي أو السعي لترجمة آراء أطراف الحوار إلى منظومة معتقدات. فحوارات السفسطائيين يمكن أن توضع في مكانها الطبيعي بوصفها - على نحو ما يُصوِّر (كلود ليفي شتراوس) طريقة حوار بعض القبائل - سعيًا دائمًا للإقناع برأي ما من خلال دحض رأي آخر، ثم يتطلَّب الرأي الجديد محاولة أخرى ندحض فيها هذا الرأي لمصلحة رأي آخر، وليس من شيء دائم الحضور في هذه العملية سوى اللعب بالكلمات. وهذه الطريقة من الحوار ليست دليلًا على عجز السفسطائيين عن الإقناع (كل حجة أصيلة تنطوي على نقيضتها)، بل هي تشهد لقدرتهم عليه، وترفع أطراف الحوار إلى مستوى يكونون معه قادرين على اكتشاف الحقيقة في هيئة تفرُّد متبادل. كما أنها بفعل جريء آخر تختزل المعضلة

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 35 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

الميتافيزيقية لدى الفلاسفة إلى أخرى متعلِّقة بالسلوك البشري، وهو امتياز يشارك السفسطائيين فيه كثيرٌ من الاتجاهات الفكرية المعاصرة[38].

ومهما يكن من أمر فإن كلا الفئتين كانت تؤمن بقدرة اللغة المُتبجِّحة على أداء وظائفها، إلا أن إيمان السفسطائيين عميق فيما يتعلَّق بقدرة اللغة على التواصل والإقناع، وإيمان الفلاسفة عميق فيما يتعلَّق بقدرة اللغة على التمثيل وإبداع المفاهيم. وقلة الإيمان باللغة والشعور بعجزها الكبير في الغرب، جاء لاحقًا للحقبة اليونانية، فقد أضحى الفيلسوف يجد مساحات واسعة من مناطق تفكيره ما زالت إمكاناته اللغوية عاجزة عن تغطيتها، وليس أمامه تجاه هذا الخُذلان سوى انتظار لحظات من إلهام اللغة؛ لملامسة ما لم يُسمَّ بَعدُ، دون أن يأمل في أثناء ذلك بأن تكون للغة قدرة عالية على نقل مجمل ما يختلج في تفكيره، فمع الانحدار من التفكير إلى الكلام يتبدَّد الكثير الكثير، ولا تكاد توجد سوى استثناءات طفيفة لهذه القاعدة، دفعها العَوَز والافتقار إلى الكلمات إلى أن تجد في كلمات الشعراء الكبار قوَّة تُعِينها على تلافي تلك الحالة. فما من فيلسوف كبير، على امتداد تاريخ الفلسفة، إلا واتَّكأ على شاعر عظيم يتجاوز به عجز الكلمات، وفي عصرنا الحديث كان لعلاقة هيدغر غير المُرضية باللغة أثر في تساؤلات لا متناهية عن ماهية اللغة وكينونتها، وكان عزاؤه الفلسفي كبير بالشاعر الألماني العظيم هولدرلين.

ففي العصور اللاحقة للحقبة اليونانية شاعت نظرة سلبية ترى في الكلام وسيلة بائسة وغير مجدية، وهي أقل شأنًا من الإلمام بأمور الإنسان كلها، وفي هذا الصدد يقول دانتي راثيًا لحالها:

إن كل لسان في ذلك سوف يُخفِق
لأن كلامنا وفكرنا أقلّ شأنًا
من الإلمام بهذا كله

وعلى الرغم من ذلك فإن في طبيعتنا البشرية ما يجعلنا نرغب دائمًا في ترجمة كل شيء إلى كلمات، حتى ظلال الأشياء وحتى تلك الأمور الباطنية التي ندرك يقينًا استحالة ترجمتها إلى كلمات.

واللغة الإنسانية في ترجمتها للأشياء والأمور، إما أن تنحو منحى حيويًا وإما أن تنحو منحى تجريديًا، فمع المنحى الأول نجد السفسطائيين يستعملون اللغة في الحوار والحجاج والمحاكمة والطلب والتوسل والنقل والوصف والتوكيد والتلميح والإنكار ...إلخ، معوّلين في كل حالة من هذه الحالات على ذكاء المتلقِّي وكفاءته التواصلية، ومع المنحى الثاني نجد الفلاسفة يستعملون اللغة في التأمُّل والتفكير غير مُعوّلين كثيرًا على كرم المتلقي وكفاءته المفاهيمية في استخلاص المعنى المراد من تمثيلات اللغة وتصوراتها المنطقية[39].

والجانب الحيوي من اللغة يجعلها تَتَكيَّف وفقًا لتطور مجمل المجتمع واتجاهاته، وإصلاح المجتمع لا يمكن أن يكون بإصلاح لغته[40]. ولهذا فإنه يمكن الذهاب إلى أن مضامين فنون القول التي برع فيها السفسطائيون هي مما يتوافق وقيم المجتمع اليوناني، التي تُعدُّ المؤسِّس الحقيقي للغة الخطاب في ذلك العصر. وإنْ لم يصدق هذا الظن، فإنه يمكننا القول بأن

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 35 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

السفسطائيين في أثناء ممارساتهم لفنون القول والحجاج وقفوا أمام لغة يعتريها شيء من الجمود، وفي هذه الحال ليس أمام أعضاء المجتمع لتلافي تحجر اللغة - كما يقول إمبرتو إيكو - سوى اللجوء إلى الشعر أو ابتكار تشكيلات لغوية جديدة غير دقيقة. ولربما كان عدم دقة خطاب السفسطائيين (سواء أكان بقصد أم بغير قصد) متطلَّبًا اجتماعيًا مُهمًّا وحاجة أصيلة. وقد يكون السفسطائيون، تحت هذه الضغوط المجتمعية، غير قادرين على تكلُّم لغة دقيقة، إلا أنهم - لا شك - يَعُون بشكل جيّد إلى أي حدٍّ يمكن أن تكون لغتهم مراوغة وغير كاملة. والفلاسفة، كما السفسطائيون، ليسوا بمنأى عن مراوغة اللغة التي يستعملونها، حتى حين يحسبون أنفسهم يتكلمون لغة دقيقة وصارمة. ولعل الفرق بينهما يكمن في الموقف الوقائي الذي يتخذه الفلاسفة؛ كاليقظة والصرامة والشك. فهذه المواقف، هي على الدوام، شرط الصحة الجيدة لاستعمال اللغة. وأما شرط الإبداع الجيد في استعمال اللغة وفنون الكلام لدى السفسطائيين، فهو لا يعني تعلُّم الدقة والصرامة، بل بالأحرى تعلُّم ما الذي تتيحه إمكانات اللغة للتكلُّم بطريقة مراوغة لا تعرف الدقة والصرامة؟

هوامش:

[1]. يُنظَر: فوكو، ميشيل: **الكلمات والأشياء**، ترجمة: مطاع صفدي وآخرين، بيروت، مركز الإنماء القومي، 1990م، ص247.

[2]. يُنظَر: فوكو: **الكلمات والأشياء**، ص247 – 249.

[3]. يُنظَر: مانغويل، ألبرتو: **الفضول**، ترجمة: إبراهيم قعدوني، بيروت، دار الساقي، 2017م، ص73، 74، 85.

[4]. يُنظَر: فرانك، فيليب: **فلسفة العلم (الصلة بين العلم والفلسفة)**، ترجمة: علي ناصف، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1983م، ص49، 50.

[5]. مانغويل: **الفضول**، ص73.

[6]. مانغويل: **الفضول**، ص78.

[7]. يُنظَر: مانغويل: **الفضول**، ص42.

[8]. مانغويل: **الفضول**، ص73.

[9]. يُنظَر: مانغويل: **الفضول**، ص78.

[10]. يُنظَر: روجيه، بول دورا: **أساطين الفكر (عشرون فيلسوفًا صنعوا القرن العشرين)**، ترجمة: علي نجيب إبراهيم، بيروت، دار الكتاب العربي، 2012م، ص17.

[11]. يُنظَر: مانغويل: **الفضول**، ص73.

[12]. يُنظَر: مانغويل: **الفضول**، ص72.

[13]. مانغويل: **الفضول**، ص79.

[14]. مانغويل: **الفضول**، ص11.

[15]. مانغويل: **الفضول**، ص76.

[16]. يُنظَر: مانغويل: **الفضول**، ص81.

[17]. يُنظَر: دولوز، جيل وغتَّاري، فليكس: **ما هي الفلسفة؟**، ترجمة: مطاع صفدي وآخرين، بيروت، مركز الإنماء القومي، 1997م، ص101.

[18]. يُنظَر: موى، بول: **المنطق وفلسفة العلوم**، ترجمة: فؤاد زكريا، القاهرة، دار نهضة مصر، د.ت، ص5.

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 35 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

[19]. يُنظَر: فيري، لوك: **تعلُّم الحياة (سأروي لك تاريخ الفلسفة)**، ترجمة: سعيد الولي، أبو ظبي، مشروع كلمة، د.ت، ص247، 250.
[20]. يُنظَر: هسّرل، أدموند: **الفلسفة علمًا دقيقًا**، ترجمة: محمود رجب، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2002م، ص24.
[21]. يُنظَر: فيري: **تعلم الحياة**، ص266.
[22]. يُنظَر: مانغويل: **الفضول**، ص80، 231.
[23]. يُنظَر: فيري: **تعلم الحياة**، ص249.
[24]. يُنظَر: مانغويل: **الفضول**، ص31، 32.
[25]. يُنظَر: فيري: **تعلم الحياة**، ص258.
[26]. مانغويل: **الفضول**، ص389.
[27]. يُنظَر: دولوز وغتاري: **ما هي الفلسفة**، ص60 – 71.
[28]. يُنظَر: دولوز وغتاري: **ما هي الفلسفة**، ص207.
[29]. يُنظَر: غادامير، هانز جورج: **طُرُق هيدغر**، ترجمة: حسن ناظم وعلي حاكم صالح، بنغازي، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2007م، ص210.
[30]. يُنظَر: بيكرتون، ديريك: **اللغة وسلوك الإنسان**، ترجمة: محمد زياد كبة، جامعة الملك سعود، النشر العلمي والمطابع، 2001م، ص13.
[31]. لوسركل، جان جاك: **عنف اللغة**، ترجمة: محمد بدوي، ط1، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، 2005م، ص218.
[32]. يُنظَر: بيكرتون: **اللغة وسلوك الإنسان**، ص179.
[33]. يُنظَر: دولوز وغتاري: **ما هي الفلسفة**، ص30.
[34]. يُنظَر: دولوز وغتاري: **ما هي الفلسفة**، ص31، 32.
[35]. يُنظَر: دولوز وغتاري: **ما هي الفلسفة**، ص213.
[36]. يُنظَر: ماجي، براين: **رجال الفكر (مقدمة للفلسفة الغربية المعاصرة)**، ترجمة: نجيب الحصادي، بنغازي، منشورات جامعة قاريونس، 1998م، ص208.
[37]. يُنظَر: مانغويل: **الفضول**، ص138.
[38]. يُنظَر: مانغويل: **الفضول**، ص225.
[39]. يُنظَر: مانغويل: **الفضول**، ص141.
[40]. يُنظَر: أوغدن، تشارلز كي وريتشاردز، آنفر آرمسترونغ: **معنى المعنى (دراسة لأثر اللغة في الفكر ولعلم الرمزية)**، ترجمة: كيان أحمد حازم يحيى، بنغازي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ص24.

المجلد: 16 **العدد:** 1 **السنة:** 2021 **صفحات المقال:** 35 **ISSN**:1111-5203 **EISSN**: 2006-6596